فرانكو يرفع
قبضته الحديدية

بعد فرانكو.. اسبانيا الى اين ؟

القوى السياسية تتحرش في خنادقها

الرجعية في مواجهة دعاة الانتقال السلمي الى الديمقراطية، ودعاة اسقاط النظام

● الجنرال فرانكو ، ديكتاتور اسبانيا يحتضر . واسبانيا على وشك عبور العتبة الى ما يسمى بالمرحلة الانتقالية . من « الكوديو » فرانكو ، الى الامير خوان كارلوس الذي يحاول الديكتاتور المحتضر ان يبعث الملكية في اسبانيا باختياره خلفا له . ولكن هل ينجح الديكتاتور حتى بعد رحيله ، بالتحكم بمصير اسبانيا بان يثبت خوان كارلوس انه « افضل خلف لخير سلف » ؟

ان اكثر « الفرانكويين » حماسة ، لا يأملون بان ينجحوا في ابقاء الابواب محكمة الاغلاق ، وفي منع درجة من التغييرات الاصلاحية التي سيضطر اليها الخلف بعد زوال القبضة الحديدية ، رغبة منه في ان يبدأ عهده بنوع من الاستقرار الذي بدأت تفقده اسبانيا حتى قبل ان يفقد « الكوديو » وعيه . ولهذا فان السؤال الذي يطرحه الناس اليوم هو عما ستشهده اسبانيا بعد فرانكو ، او كيف سيتعامل النظام مع المعارضة بمختلف فئاتها ، وكيف ستتعامل المعارضة التي انتظمت في عدة نقاط استقطاب ، مع النظام الفرانكوي من دون فرانكو ... او هل تعود الجراح التي لم تلتئم طوال العقود الاربعة الاخيرة ، الى الانفجار مجددا ؟

المعارضة المعتدلة التي تقف في الوسط ، تتكهن بان اسبانيا تعيش هذه الايام فترة التحضير النفسي لحرب اهلية جديدة . ولهذا التخوف ، الوقائع التي تبرره . فالنحو البارز لقوة المعارضة الثورية قد عكس نفسه ليس في النضالات اليومية ضد نظام الحكم الرجعي الديكتاتوري ، بل وفي حقيقة ان حكم فرانكو في السنة الاخيرة كان يعيش في عزلة ملحوظة ، وذلك لان المعارضين من داخل النظام انفسهم باتوا في خشية متزايدة على استقرار نظامهم على ضوء اعمان حكم فرانكو في ديكتاتوريته ، وفي رفضه المتعنت لاي اصلاح مهما كان سطحي الطابع الامر الذي ساهم في تحقيق المزيد من الاستقطاب الجماهيري حول التيار الثوري الداعي للنضال بهدف اسقاط النظام .

ولعل من ابلغ اللحظات التي برزت فيها هذه العزلة للحكم الديكتاتوري ، هي تلك اللحظة ذاتها التي برز فيها المدى الذي يمكن ان يذهب فيه نظام الحكم في اصراره على الممارسة الفاشية ، والتجاهل الكامل لمطلق ارادة جماهيرية ، ومن دون حساب للرأي العام في الداخل او في الخارج ـ قضية تنفيذ احكام الاعدام مؤخرا بعدد من ثوار الباسك ، التي احدثت ضجيجا وافعالا وردود فعل كانت مميزة بشدتها وعنفها .

ففي الداخل اتخذت على مضي الحكم في تنفيذ الاعدامات عدة اشكال للاستنكار ، من القداديس والمسيرات تحية لارواح الشهداء ، الى التظاهرات واعمال العنف ضد رموز النظام . اما في الخارج ، في اوروبا ، التي شارك الالاف من مواطنيها في الثلاثينيات ، في الحرب الاهلية الى جانب الوطنيين البجهوريين ضد الفاشية بقيادة فرانكو المدعوم من النازية والفاشية ، الالمانية والايطالية ، فقد كانت ردة الفعل عنيفة ، واقوى من ردة فعلها تجاه الحرب الاميركية القذرة في فيتنام : ١٤ سفير غادر مدريد احتجاجا من حكوماتهم . مظاهرات ضخمة في انحاء البلدان الاوروبية . ملايين العمال الاوروبيين (الغربيين) اوقفوا العمل لعدة دقائق حدادا واستنكارا . في هولندة توقفت اشارات السير على الضوء الاحمر . رؤساء حكومات هولندة والسويد ساروا في تظاهرات احتجاجية . محافظ انفرة قطع الماء والكهرباء عن سفارة اسبانيا لمدة اسبوع ورئيس المكسيك طالب بطرد اسبانيا من الامم المتحدة . اما في الفاتيكان ، فقد ادان البابا التنفيذ بشدة ، مما حمل السلطة الاسبانية في اسبانيا الكاثوليكية المتعصبة ، الى منع اذاعة كلمته ونشرها بموجب قانون مكافحة الارهاب !

اليمين الفاشي : ردة الفعل

وردود الفعل تلك حركت اليمين الفاشي الاسباني ، فتحرك بدوره ضدها .

وقد استهدف تحركه « الاجانب » : الشيوعيين الليبراليين والباسكيين . وكان من بين الهتافات التي رفعها ان « كل الاوروبيين اولاد كذا وكذا ... » وتعرض الاجانب بالفعل ، للضرب في الشوارع ، والقيت قنابل مولوتوف على قنصلية بلجيكا في مدريد ، بينما نافت صحافة النظام عن هذه السياسة الفاشية وادعت بان اسبانيا تقف وحدها اليوم ، « تدافع عن كل القيم الحقيقية للعالم المتمدن » . واعتبر رئيس الوزراء نافارو ردة الفعل الاوروبية « اعتداء لا يحتمل ضد سيادة اسبانيا » ، والذي « يتعارض » مع مقررات مؤتمر هلسنكي حول الامن والتعاون في اوروبا ...

وحتى الجنرال فرانكو نفسه شارك في الحملة . فقد وصف بشفاه ترتجف وصوت يكاد لا يسمع رغم مكبرات الصوت ، احتجاجات الاوروبيين «الفاسدين» بانها « مؤامرة من اليسار الماسوني الذي عقد تحالفا مشينا مع القوى الشيوعية الارهابية المتسللة » (!) ـ وقد استمع الى كلمته التي لم تدم اكثر من خمس دقائق ، الاف من انصاره وهم في لباس الميدان يزينون صدورهم بمداليات الحرب الاهلية ... وكانوا يهتفون بسقوط الاجانب ، بينما تعلن قيادتهم بان

اسبانيا « ليست بحاجة لاصلاح جديد » ...

صعود الجنراليسيمو فرانكو والحرب الاهلية

لقد ولد فرانكو في عام ١٨٩٢ ، عام قنابل الفوضويين في برشلونة . ومنذ ذلك الوقت ، ومن بعد ان اصبح الكوديو (القائد) وحتى اليوم ، لم يصمت السلاح في اسبانيا . ولم يتمكن فرانكو عندما كان عمره ١٥ سنة ، الا من دخول اكاديمية المدفعية ، الاقل شهرة ، في توليدو . وقد اشترك بنجاح فيما بعد في مراكش ، في الحملة الاسبانية ضد الثوار البربر ، مما ادى الى ترقيته بسرعة وليصبح عندما كان عمره ٣٣ سنة ، اصغر جنرال منذ قيام نابوليون. وتحت قيادته اصبحت الفرقة الاجنبية اصلب قوة في الجيش الاسباني ، وحطم بواسطتها ثورة قبائل الرين في الصحراء الاسبانية ، مما وسع شهرته بين العسكريين ... وتمكن بعد ذلك من تعزيز شهرته العسكرية تلك عندما غرقت الجمهورية الاسبانية الثانية في الفوضى ، في منتصف الثلاثينات ، عندما راح الفوضويون يحرقون الكنائس ، وعمال الزراعة الجائعون يحتلون املاك الاقطاعيين ، وشلت الاضرابات الحياة الاقتصادية .

ففي سنة ١٩٣٦ احرزت الاغلبية ، الجبهة الشعبية المؤلفة من البجهوريين والاشتراكيين والفوضويين والشيوعيين . وهذا النجاح دفع طبقة النبلاء والاقطاع والكنيسة الكاثوليكية الى تشكيل « الجبهة الوطنية » . وتشكلت « الكتائب » الاسبانية كراس حربة القوى الرجعية المتكاتفة . وكانت هذه منظمة فاشية اسسها ديكتاتور العشرينات ، خوسيه انطونيو دي رنيرا ، وذلك على طراز المنظمات الفاشية الايطالية والالمانية . واسم « الكتائب » مستمد من كلمة « فالانكس » ، المقدونيون الذين حطموا النظام الديمقراطي في اثينا ، في القرن الرابع قبل الميلاد ...

لقد سقط ٢٦٩ قتيل واحترقت ١٧٠ كنيسة ، ونفذ ١١٣ اضراب ، خلال اربعة اشهر من الاضطرابات العنيفة . ومن ثم تحرك اليمين تحت شعار « لا للجديد » ، وبدأ الضباط اليمينيون الحرب الاهلية ، ومن ثم تسلح فرانكو القيادة . وقد قال في حينها : « انهم يسلمونني اسبانيا ـ قبضتي لن تتراخى وستبقى يدي مشدودة » .

واستمرت الحرب الاهلية ٣ سنوات سقط خلالها ما لا يقل عن ٦٠٠ الف نسمة . وقاتلت اوروبا في الحرب على الجانبين . ساعد السوفيات البجهوريين ، وانتظم ٤٠ الف متطوع اوروبي في الفرق الدولية لمحاربة صعود الفاشية في اسبانيا . واستشهد منهم الالاف .

اما فرانكو فقد تلقى العون من روما وبرلين . فقد ارسل موسوليني مليار مارك مساعدات ، و ٥٠ الف جندي . ونقلت الطائرات الالمانية الفرق الاجنبية من افريقيا ، وارسلت السلاح ، وفرقة كوندور المؤلفة من ٢٠ الف جندي الماني دعما له . ومن ابرز اعمال فرقة الكوندور تلك ، احراق المدينة الباسكية ، « غورنيكا » ، التي قتل فيها ١٦٥٤ مدني ، وخلدها الفنان بيكاسو بلوحته الشهيرة التي استوحاها من المجزرة الرهيبة .

وربح فرانكو الحرب ، واختفى حوالي المليونين من انصار البجهورية الذين لم يتمكنوا من الهرب ، في معسكرات الاعتقال ، ومات الالاف منهم . ولم يبق فرانكو على حياة ضباط الجبهة الشعبية . اعدمهم كلهم ، ليقيم « دولة عسكرية تعيش مع اجزاء من شعبها في حالة حرب » كما يقول المؤرخ الليبرالي الاسباني ، سلفادور دي مادرياغي .

ومقابل خدمات المانيا النازية قدم فرانكو للالمان « الفرقة الزرقاء » المؤلفة من ٤٧ الف جندي ، قاتلوا على الجبهة الروسية . وما زالت المانيا الغربية تدفع التعويضات لعائلات هؤلاء ...

لهجتي الاميركيين :

ولكن نتائج الحرب العالمية وسقوط الفاشية في اوروبا عزلت اسبانيا عن بقية العالم ، باستثناء البرتغال السالازارية والارجنتين البيرونية . ولكن بقيت اسبانيا حتى سنة ١٩٥٣ ، « بيت الفقراء » في اوروبا ، حتى اكتشف الاميركيون « قيمة » اسبانيا ، فحصلوا على حقوق قواعد عسكرية فيها مقابل مليارى دولار بشكل مساعدات وقروض . ومن ثم بدأت الشركات الاميركية تستفيد من الاجور الضئيلة للايدي العاملة ، فراحت تستثمر في اسبانيا لتتبعها المؤسسات الاوروبية ، ومن ثم السواح ...

ولم تمض فترة طويلة حتى تدفق المستثمرون الاجانب على اسبانيا يستفيدون من نظام الحكم الديكتاتوري الذي يحرم الاضرابات ويسيطر بيد من حديد على القوى العاملة ، ومن رخص اجور الايدي العاملة . وما بين سنة ١٩٦٠ و ١٩٧٢ ، استثمرت الشركات الاجنبية عشر مليارات مارك في اقتصاد اسبانيا ـ فرانكو . وقد ادى مدخول السياحة ـ ٣٠ مليون اجنبي كسياح ـ بالاضافة الى المداخيل من ٦٠ الف عامل اسباني منتشرون في شمال اوروبا ، الى نمو الاقتصاد الاسباني ، ونمو الحركة العمالية . اذ ان ٧٠ بالمائة من صادرات اسبانيا اليوم ، هي من القطاع الصناعي . وقد ادى ذلك ايضا الى نمو طبقة متوسطة جديدة تضم ما يعادل ثلث السكان ، بينما لم يزد عددها قبل الحرب الاهلية عن مليوني نسمة .

ولم يجد المستثمرون فقط ، ايدي عاملة رخيصة ، بل وجدوا ايضا ، بلدا تعتبر فيه الحقوق

ضحايا مجازر الفاشية